في موكب الزكرى :

أبو القاسم الشابي

(بمناسبة ذكراه السادسة عشرة)

في توزر ، تلك البلدة الجميلة بتونس ، وفي صباح يوم من أيام عام ١٩٠٩ ، فوق فراش وثير ، وفي بيت مجد وجاه ، رزق الشيخ محمد بن أبي القاسم الشابي طفلا أسماه « أبا القاسم » ، تيمنا باسم جده .

فيا ترى هل علم المهد الوثير ، والبيت الكبير ، والشيخ الوالد ، أن هذا اليوم كان يوم ميلاد شاعر عبقري ، خلقه الله ليكون شاعرا وحسب ، وأوجدته الطبيعة قطعة منها ليصوغها نغما شجيا ، وهتافا ساحرا على أوتار القلوب الحساسة والعواطف الجياشة ... حفظ أبو القاسم القرآن ، شأن كل طفل يولد في بيت إسلامي ، وبلد إسلامي في ذلك الحين ، ولما شب التحق بجامع الزيتونة وهو صورة مصغرة من الأزهر في تونس .

أخذ شاعرنا يدرس علوم العربية على نظامها البالي العتيق ، من متن وشرح وحاشية ، وسار بخطى موفقة يعززها ذكاء وقاد ، وميل طبيعي إلى القراءة والاطلاع ، حتى نال شهادة « التطويع » عام ١٩١٦م ، ثم التحق بكلية الحقوق التونسية ، ونال إجازتها متفوقا ، وأراد أن يتم دراسته ، فتصدى له مرض الصدر جبارا عنيدا ، قائلا : مكانك ، فمكف الفتى على علاجه ، ورجع مبتسما هادئا يتعلم في مدرسة الحياة ... ويكب على القراءة والاطلاع إكباب المنهوم على الطعام ، يقرأ في الأدب القديم باستيعاب وتفهم ويعب من نبعه الصافي ، حتى أسلست له اللغة قيادها ، وأتته طائعة مختارة ، يقبل على الأدب الحديث ، إقبال المشوق المستهام ، بذهن صاف ومزاج شاعري كأنه المرآة يميز بين الغث والسمين في سهولة ويسر ؛ وكان من نتيجة قراءته للقديم وإقباله على الحديث أن أخرج كتاب (الخيال الشعري عند العرب) وهو دراسة للأدب العربي في جميع عصوره على ضوء النقد

كأن الناس (سردين) فبعض ... على بعض - وإن كرهوا - ينام
ترى في ساحها سمكا ولكن ... على أمثالنا سمك حرام
يكاد الفول فوق السوس يجرى ... من الأطباق حتى لا يرام
كميارات يتزول عليها ... صهاريج يسيرها هام
شهدت بها ليالي كالحات ... يضيء سواد فحمتها ضرام
قنابل في شظاياها فناء ... وفي نيرانها رقص الحمام
فتلك جواؤها ، أما ثراها ... ففيران يسابقها (الترام)
جيوش في بطون الأرض تجرى ... وفي جدران أدؤرنا قيام
لبسن الليل ثوبا من سواد ... أليس الشر موطنه الظلام
تكاد على أسرتنا تناجي ... وترقد لا تخاف ولا تضام
كأن الفقر حالفها أمينا ... فبين كليهما أبدا ذمام
ذواهب آمنات راضيات ... كأن قد ضمها البيت الحرام .

ألست معي في أن فكاهات الشاعر حسن طنطاوي هي فكاهات تتمثل فيها الروح المصرية المرحة ، وأن شعره يتناسب مع البيئة المصرية اللينة الهادئة التي تميل إلى البساطة في كل شيء فإذا بألفاظ الشاعر مطبوعة بهذا الطابع المصري اللين البسيط ، وأنه يحاول أن يحلي شعره ببعض ألفاظ وتعبيرات مصرية خالصة مما يستعملها الناس في حياتهم العامة ، ولا يبالي الشاعر إذا كان هذا اللفظ عربي الأصل أو غير عربي مادامت الكلمة قد دخلت إلى لغتنا العربية واستعملها الناس وفهموا مدلولها ، شأنها في ذلك شأن آلاف الكلمات التي دخلت قواميس اللغة العربية في العصور السابقة وعرفت بأنها دخيلة ولكن الشعراء استعملوها ، وأجازها النقاد والأدباء ، فشاعرنا لم يتقيد بقيود علماء اللغة العربية ، فهو يحافظ على اللغة وسلامتها من ناحيته ، ويجدد فيها ويعيد إليها الحياة باستعمال بعض كلمات اصطلح الناس على تسميتها بالعامية ، فشأنه في ذلك شأن الشاعر البهاء زهير الذي لم يتردد في أن يكثر من استخدام التعبيرات العامية المصرية في أشعاره وإن أغضب في ذلك نحاة عصره ولكن النقاد الأدباء فتنوا بشعره ، ولا يزال النقاد إلى الآن يعجبون به ، ولنا رجعة إلى الحديث عن الشاعر مرة أخرى .

محمد كامل حسين

الحديث . ولم يتعلم أبو القاسم لغة أجنبية ، وهو بالرغم من ذلك مجدد ، بل زعيم من زعماء المجددين في العصر الحديث ... يعرف ذلك كل مطلع على شعره متذوق له ، وهي ناحيـة من نواحي عبقرية شاعرنا المجيد .

وكان أبو القاسم مغرما بأدب المهجر ؛ وبخاصة مدرسة جبران خليل جبران ؛ ومع ذلك فقد كان رحمه الله نسيج وحده منفردا بمدرسته .

... ولقد اشتدت عليـه وطأة المرض حتى طواه الردى في فجر يوم ٩ أكتوبر سنـة ١٩٣٤ ولـما يتجاوز الخامسة والعشرين بعد .

كان أبو القاسم — رحمه الله — شاعر طبع رقيق ، وعاطفة متقدة ، وإحساس نبيل ، أذاقه المرض من ويلات الحياة الكثير ، وقد ظهر أثر ذلك في شعره جليا فكنت تحس فيـه الألم العميق العبقري ، والشكوى المريرة التي قنعها بقناع جميل من خياله الفسيح ، فسمى قصائده : قلب الأم . وألحاني السكرى ، والجنـة الضائعة ... إلخ وغير ذلك مما يدفع القارئ أن يظن لأول وهـلة أنه إنما كتبها وصفا لغيره ، وما هو في الحقيقة إلا وصف عميق لأغوار نفسه الكبيرة .

ولأبي القاسم أكثر من ناحية في شعره ، فهو تارة فيلسوف ساخر ، وأخرى ثائر جبار ، وثالثة يائس مستسلم ، كل ذلك يعبر عنه في همس شاعري رقيق ، وأداء نفسي جذاب ، وتصوير فني ممتاز ؛ فأبو القاسم الفيلسوف الساخر الذي يقول :

لست يا أمي أبكيك لمجد أو لجاه
سلبته مني الدنيا ، وبزتني رداه
فأنا أحتقر المجد وأوهام الحياه

هو نفسه أبو القاسم الثائر الجبار الذي يقول في « نشيد الجبار »

سأعيش رغم الداء والأعداء كالنسر فوق القمة الشماء
أرنو إلى الشمس الكئيبة هازئا بالسحب والأمطار والأنواء
وأقول للجمع الذين تجشموا هدمي وودوا لو يخر بنائي
ورأوا على الأشواك ظلي هامدا فتوهموا أني قضيت زمائي:
إن المعاول لا تهد مناكبي والنار لا تأتي على الأعضاء

وهو نفسه أبو القاسم اليائس المستسلم الذي يقول في قصيدته « في ظل وادي الموت » .

قد رتعنا مع الحياة طويلا وشدونا مع الطيور سنينا
وعدونا مع الليالي حفاة في شعاب الزمان حتى دمينا
وأكلنا التراب حتى ملأنا وشربنا الدموع حتى روينا
ثم ماذا . أهذا ما صرت في الدنيا بعيدا عن لهوها وغناها
في ظلام الفنـاء أدفن أبا يي ولا أستطيع حتى بكاها
وزهور الحياة تهوى بصمت محزن مضجر على قدميا
جف سحر الحياة يا قلبي البا كي فهيا نجوب الموت هيا

أو يقول في قصيدته « ألحاني السكرى » معبرا عن حبـه العميق للحياة :

أيها الدهر ! أيهـا الزمن الجا ري إلى غير وجهة وقرار
أيها الكون ! أيها الفلك الدوار بالفجر والضحى والنهار
أيها الموت ! أيها القدر الأعـ ـمى قفوا حيث أنتم وأوقفوا وسيروا
ودعونا هنا نغني لنا الأحـ ـلام والحب والوجود الكبير

ولكنه يشعر بقلبـه الكبير أن الدهر ، والزمن ، والكون ، والموت لن يتركوه تغني له الأحلام والحب والوجود الكبير فيستدرك استدراك الحس الرقيق :

وإذا ما أبيتمو فاحـ ـلونا ولهيب الغرام في شفتينا
وزهور الحياة تعبق بالعطر وبالسحر والصبا في يدينا

حقا ! إن كل إنسان محب للحياة ... ولكن هناك تفاوت في سمو الحب بمقدار تفاوت النفوس البشرية ... ! وأبو القاسم صاحب نفس رقيقة نبيلة يحب الحياة في أرق شيء فيها وأنبله ، إنه يحبها في الحب نفسه ، فيود أن يموت وعلى شفتيـه لهيب الغرام ، وزهور الحياة والصبا في يديه . ولأبي القاسم ولع بالطبيعة فنفسه الشاعرية مرآة صافيـة رهيفـة سواء في (توزر) أو في (عين دراهم) بيئة طبيعية الجمال ، فلا عجب إذا انعكست صورها في مرآة نفسـه ، فاستمد تشبيهاته منها وصورها لنا تصويرا خليقا بالإعجاب في جل شعره إن لم يكن في كله ... !

يقول في قصيدته (صلوات في هيكل الحب) .

عذبة أنت كالطفولة كالأحـ ـلام كاللحن كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك كالليلة القمـ ـراء كالورد كابتسام الوليـد

ويقول فيها : —

في فؤادي الرحيب تخلق أكو ... ان من السحر ذات حسن فريد
وشموس وضاءة ونجوم ... تنثر النور في فضاء مديد

ويقول في قصيدته « قلب الأم » .

يصغي انغمتك الجميلة في خرير الساقيه
في أنة المزمار في الغـــو الطيور الشاديه
في ضجة البحر المجلجل في هدير العاصفه
في لجة الغابات في صوت الرعود القاصفه
في فتنة الشفق الوديع وفي النجوم الباسمه
في رقة الفجر البديع وفي الليالي الحالمه
في رقص أمواج البحيرة تحت أضواء النجوم
في سحر أزهار الربيع ، وفي تهاويل الغيوم
في مشهد الشاب المجرد والورود الهاويه
في ظلمة الليل الحزين ، وفي الكهوف العاريه

وهكذا ... هكذا ، صور وتشبيهات خلابة ، استمدها من الطبيعة ، وأضفى عليها من روحه الحية الكثير ، مما يحمل القارئ على الظن بأن هذا اللون من الشعر جديد في بابه ، رغم من إيغاله في القدم .

ووحدة القصيد من الميزات الواضحة في شعر أبي القاسم ؛ فلا يكاد القارئ يحس ، من مطلع القصيدة إلى ختامها ، لنشاز بيت واحد أو نبوه أثرا . وهو مجدد في تعبيراته فضلا عن أفكاره ، ألمس ذلك في كل شعره ، وأحسه كلما أقبلت عليه أقرأه في أي موضوع كان .

يقول في قصيدته « يا شعر » واصفاً الموت :

يأتي بأجنحة السكون كأنه الليل البهيم
لكن طيف الموت قاس ، والدجى طيف رحيم

ويقول فيها أيضا :

أرأيت أزهار الربيع وقد ذوت أوراقها
فهوت إلى صدر التراب وقد قضت أشواقها

ويقول في « صلوات في هيكل الحب » .

وحياة شعرية هي عندي ... صورة من حياة أهل الخلود

أو يقول في (الجنة الضائعة) .

لا نبالي اللهو البرىء وليس يدركنا الفتور
فكأنا نحيا بأعصاب من المرح المثير

فأجنحة السكون ، وصدر التراب ، والحياة الشعرية ، والأعصاب التي هي من المرح المثير ... كل تلك التعبيرات الرقيقة في ألفاظها ، تحمل ما تحمل من عمق الفكرة وسمو الأداء .

وشعر المناسبات عند أبي القاسم قليل إن لم يكن معدوما ، بيد أن له في الوطنية شعرا رقيقا قويا .

ومن أقوى ما قال في شعره الوطني قصيدة « ليتني » المنشورة بالعددين (٧٠ ، ٦٦٤ من الرسالة) التي يقول في مطلعها :

أيها الشعب ليتني كنت حطابا ... فأهوي على الجذوع بفأسي

ومن شعره القوي في هذا الموضوع قصيدته التي يقول فيها : —

إذا الشعب يوما أراد الحياة ... فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي ... ولا بد للقيد أن ينكسر

أما بعد : فما قصدنا بكلمتنا إلا إشارة عابرة إلى تلك العظمة في عالمها النوراني الساحر ؛ وعلى كل حال فأفضل من عجز المحيط طاقة المشير .

وإنا لنتجه بمناسبة هذه الذكرى إلى أدباء العربية قاطبة في جميع بلدانها من مصر إلى المهجر الأمريكي ، ومن فلسطين إلى تونس آملين أن يقوموا بواجبهم إزاء هذا الشاعر الشاب الذي هوى من علياء سمائه وهو لا يزال في ميعة العمر ، وريق الشباب ، فيخرجوا للحياة « من أغاني الحياة » لتأخذ طريقها إلى المكان اللائق بها في المكتبة العربية الحديثة .

ألا رحم الله تلك الروح ، وضمها إلى أفيائه وفي ظلال جناته ، وجزاها على ما قدمت لأمتها خير الجزاء .

رجاء عبد الوهاب النقاش

الراجع : ١ — شعر أبي القاسم في مجلات أبولو ، الرسالة ، الثقافة ، الإمام .
٢ — العدد الأخير من مجلة « أبولو » .
٣ — العدد (٧٠) من الرسالة .